فقه الشافعي

قرة العين

في التسهيل والتكملة لألفاظ فتح المعين

الأستاذ عبد الرحيم بن عبد المغني الاندونيسي

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ للهِ الفَتَّاحِ الْجَوَّادِ , الْمُعِيْنِ على التفَقُّهِ فِي الدين مَنْ اختَارَهُ مِنَ العِبَاد . وأشهَدُ أنْ لآ إلهَ إلاَّ اللهُ شهادةً تُدخِلُنَا دارَ الْخُلُود , وأشهَدُ أنَّ سيدَنَا ومولاَنَا وقُرَّةَ أَعيُنِنَا مُحَمَّدًا عبدُهُ ورَسُولُهُ صَاحِبُ الْمَقَامِ الْمَحمُودِ , صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ وعَلَى آلِهِ وأَصْحَابِهِ الأَمْجَادِ , صلاةً وسَلاَمًا أَفُوزُ بِهِمَا يومَ الْمَعَاد .

وبَعْدُ : فيَقُولُ أفقَرُ العبادِ إِلَى رَحْمَةِ ولُطْفِ رَبِّهِ الغَنيِّ عبدُ الرحيم بن الْمَرحُوم عبدِ الْمُغْنِي : إنَّهُ لَمَّا وَفَّقَنِيَ اللهُ تَعَالَى لِقِرَاءة شَرْحِ العَالِمِ العَلاَّمَةِ العارفِ الكامِلِ , مُرَبِّي الفُقَرَاء والْمُريدينَ والأفَاضِلِ , الْجَامِعِ لأَصْنَاف العُلُوم , الْحَاوي لِمَكَارِمِ الأخلاقِ مَعَ دَقَائق الفُهُومِ , الشيخ زينِ الدين ابنِ الشيخ عبدِ العزيز ابن العلامة الشيخ زين الدين ابن الشيخ عَلِيٍّ ابنِ الشيخ أَحْمَدَ الشَّافِعِيِّ الْمَليبَاري الفَناني (أَحَدِ تلامِذَةِ الشيخ ابن حَجَر الْهَيتمِيِّ الْمَكِيِّ صاحبِ تُحْفَةِ الْمحتاجِ شَرْحِ الْمِنهَاجِ) الْمُسَمَّى بفَتْحِ الْمُعِين بشَرْحِ قُرَّةِ العين بمُهِمَّات الدين فِي الفقهِ عَلَى مذهب الإمامِ الْمجتَهِد أبي عبدِ اللهِ مُحَمَّدٍ بن إدريسَ الشافعيِّ بمَحفَلٍ مِنْ طُلاَّبِ العلمِ العظامِ بدار العُلُوم " الفتح " تَمبُورُو بجَاوَى الشَّرقية فِي سَنَوَاتٍ عديدةٍ ... طَالَمَا يَخْطِرُ ببَالِي أَنْ أَتَبَرَّكَ بِخِدْمَةِ شَيْءٍ مِنْ هذا الكتابِ الْمُبَارَكِ بتَسْهِيلِ مَا أرَادَهُ وتَكْمِلَةِ مَا فَاتَهُ .

ثُمَّ بعدَ أنْ رَجَعْتُ مِنَ الْحَرَمَيْنِ الشريفَيْنِ لأداءِ حَجَّة الإسلامِ سَلْخَ ذي الحجةِ سنةَ ١٤٢٧ هـ (الْمُوَافِق ليانواري ٢٠٠٧ م) طَلَبَ مِنِّي بَعْضُ الأَسَاتِذَةِ وَالأَصْـــدِقَاء – أصلَحَ اللهُ لِي وَلَهُمْ الْحَالَ والشَان – تَحْصيلَ شيءٍ مِنَ الْمُصَنَّفَاتِ الْمُفيدَة .

فاستَخَرْتُ اللهَ تَعَالى فِي إجَابةِ ذلك الطَلَبِ , فانشَرَحَ لذلك صَدْرِي وشرَعْتُ في تسهيلِ ألفَاظِ فتحِ الْمُعِيْنِ [1] وتقطيعِهَا قضيةً فقَضِيَّةً وتكمِلَةِ مَا فَاتَهُ من بعضِ الفُصُولِ

[1] . وذلك يومُ الاثنين لثانٍ وعشرينَ مِنْ صفر الْمُبَارك سنة ١٤٢٨ هـ (الْمُوَافق لاثني عَشَرَ مارث سنة ٢٠٠٧ م) .

والأبوابِ , الَّتِي لاَ بُدَّ مِنْ مَعرِفَتِهَا للطُّلاَّب , مُستعينًا فِي ذلك بالْمَلِكِ الوَهَّاب , ومُلْتَمِسًا منه التوفيقَ لِلصَّوَاب , رَجَاءً أنْ يكونَ تَذْكِرَةً لِي وللأَحْبَاب , وأنْ يَنفَعَنِي به والأصحَاب , وتَقِرَّ بسَبَبِهِ عَيْنَايَ يومَ الْمَآب , بالنَّظَرِ إلَى وَجْهِهِ الكريمِ بغَيْرِ شكٍّ ولاَ ارتِيَاب , فاللهُ هو الْمَرجُوُّ لِتحقيقِ مَا فِي الذهنِ مِنْ رجاءٍ وَطَلَب .

وسَمَّيْتُهُ " قُرَّةَ العينِ " فِي التسهيلِ والتَّكْمِلَةِ لأَلفَاظِ فتحِ الْمُعِين .

واعلَمْ أيُّهَا الواقِفُ عَلَى هذا التأليفِ أنه ليسَ لِي فيه إلاَّ النَّقْلُ مِنْ كلاَمِ الجُمهُور , والإتيانُ فِي ذلك بالشَّيْءِ الْمَقْدُور , فالْمَيْسُورُ – كمَا قِيْلَ – لاَ يَسقُطُ بالْمَعسُور .

وأنَّ عُمْدَتِي فِي ذلك : حَاشيةُ إعانةِ الطالبينَ , وتُحْفَةُ الْمحتاجِ (الَّتِي هي عُمْدَةُ الْمُؤَلِّفِ فِي شَرْحِهِ) مَعَ حَوَاشِي الشِّرْوَانِي وابنِ قاسِمٍ العَبَّادِي , ومُغنِي الْمُحتَاجِ , ونِهَايةُ الْمُحتاجِ , والْمَجمُوعُ شرحُ الْمُهَذَّب , وفتحُ الوَهَّاب مَعَ حَوَاشي البجيرمي , وحاشيةُ الباجوري على شرح ابن قاسم الغَزِي , وأَسْنَى الْمَطَالِبِ شرحُ الروض وغيرُ ذلك مِنْ كُتُبِ الْمُتأخِّرِيْنَ وحَوَاشيهِمْ وفَتَاوِيْهِمْ ... مُعتَمِدًا فِي ذلك على مَا اتَّفَقَ عليه شيخَا الْمذهبِ أبو زكريا يَحْيَى بنُ شَرَفِ الدين النَّوَوِيُّ وأبو القاسم عبدُ الكريْمِ الرافِعِيُّ , ثُمَّ مَا رَجَّحَهُ النوَوِيُّ , فَالرَّافِعِيُّ , ثُمَّ مَا عليه مُحَقِّقُوْ الْمُتَأخِّرِينَ : كابنِ حَجَرَ الْهَيْتَمِي والشَّمْسِ الرَّمْلِي وشيخِ الإسلام زكريا الأنصَارِيِّ والْخَطِيْبِ الشِّرْبِيْنِي وابن الزيادِ الزَّبِيْدِيِّ اليَمَنِيِّ وغيرهم رَضِيَ اللهُ عنهُمْ وأَرْضَاهُمْ وأفَاضَ علينَا مِنْ بَرَكَاتِهِمْ أجْمَعِيْنَ .

نَعَمْ , إذا شَقَّ عَلَينا فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ الاعتِمَادُ بالرَّاجحِ فِي الْمَذهَبِ مَشَقَّةً حَيْثُ لاَ تُحتَمَلُ عَادَةً أضَفْتُ إلَى ذلك قَوْلاً أو وَجْهًا آخرَ أخَفَّ , تَيْسِيْرًا للعبادِ وإرْفَاقًا بهِمْ وامتِثَالاً بإرشَادِ النبيِّ ﷺ :" يَسِّرُوْا وَلاَ تُعَسِّرُوْا "... لاَ تَسَاهُلاً فِي الفُتْيَا وَلاَ تَتَبُّعًا لِلرُّخَصِ فِي الْمَذَاهِبِ .

وقَدْ عَزَوْتُ مَا فِي هذا الكتابِ إلَى الكُتُبِ الْمذكُوْرةِ فِي أوَّلِ كُلِّ الفُصُولِ أو الأَبْوَاب , ثُمَّ مَا رأيتَهُ مِنْ صَوَابٍ فِي أَيِّ مَطْلَب , فهو مِنْ تَحْرِيْرِ أَئِمَّةِ الْمَذهَب , وَمَا رأيتَهُ مِنْ خَطَأٍ فَمِنْ تخليطٍ حَصَلَ مِنِّي أو وَهْمٍ صَدَرَ مِنْ سُوءِ فَهْمِي , فالْمَسؤُولُ مِمَّنْ عَثَرَ على شيءٍ منَ الْخَلَلِ , أَن يُصلِحَهُ ويُسَامِحَ فيمَا قَدْ يَظهَرُ مِنَ الزَّلَل .

وَمَا أحسَنَ مَا قِيْلَ :

وَإِنْ تَجدْ عيبًا فَسُدَّ الْخَلَلاَ فجَلَّ مَنْ لاَ عيبَ فيه وَعَلاَ

وَنَسْأَلُ اللهَ العظيمَ رَبَّ العرشِ الكريْم أَنْ يُوَفِّقَنَا لِمَرْضَاتِهِ ويُسْبِلَ علينَا ذَيْلَ كرَامَاتِهِ , وأنْ يُعِينَنَا عَلَى الإكمَالِ , وأن يَنفَعَ به كما نَفَعَ بأَصْلِهِ إنَّهُ ذُوْ الْجُوْدِ والإفضَالِ , وأَنْ يَجْعَلَ ذلك خَالِصًا لِوَجْهِهِ الكريْمِ , ومُوْجِبًا لِلفوزِ لَدَيْهِ بِجَنَّاتِ النعيمِ , إنَّهُ أكرَمُ كَرِيْمٍ وأرحَمُ رَحِيْمٍ . آمين آمين آمين ...

وها أنا أشرَعُ فِي الْمَقصُود بعَوْنِ الْمَلِكِ الْمَعبُودِ , فأقُولُ وبالله التوفيقُ لِأَحْسَنِ الطَّريقِ. وقبلَ أن نتَعَرَّضَ فِي الْمَقصُود يَنبغي لنا أنْ نَتَبَرَّكَ بذكرِ طَرْفٍ مِنْ حياةِ الإمامِ الشافِعِيِّ رضي الله عنه الَّذي نُقَلِّدُهُ وَنَتَّبِعُهُ , وَلِكَيْ نَعرِفَ عَظَمَتَهُ ومَكانتَهُ فِي العلمِ .

الإمامُ الشافعيُّ رضي الله عنه
لَمْحَةٌ من حياتِهِ ومذهبه [٢]

✓ نَسَبُهُ :

هو أبو عبد الله مُحَمَّدُ بنُ إدريسَ بنِ العَبَّاس بنِ عُثْمَانَ بن شَافِعِ بنِ سائب بن عُبَيد بنِ عبد يزيد بن هاشم بن مُطَّلِب بنِ عبدِ مَنَافٍ بن قُصَيٍّ , الإمامُ الفقيهُ القُرَشِيُّ الْمُطَّلِبِيُّ الشافعيُّ الحِجَازِيُّ الْمكِيُّ , يَلْتَقِي مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي عبدِ مَنَافٍ .

وشافعٌ هذا ... صَحَابِيٌّ مِنْ أصحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ, وأَبُوهُ السائبُ هو أحَدُ مَنْ

---

[٢]. انظر : تكملة الْمجموع : ١/٧٩, ٥٤٢ , فقه العبادات : ٨

أُسِرَ يومَ بدرٍ مِنَ الْمُشركِيْنَ ثُمَّ أسلَمَ بعدَ أنْ فَدَى نفسَهُ , وكَانَ يُشْبِهُ بالنبيِّ ﷺ , وعُثمَانُ بنُ شافع مَعدُودٌ مِنَ التابعينَ .

وأُمُّهُ هِيَ الشَّفَّاءُ بنتُ أرقَم بنِ نَضْلَةَ أَخِيْ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ . وهِيَ يَمَانيةٌ مِنَ الأزدِ وكانَتْ مِنْ أذكَى الْخَلْقِ فِطْرَةً .

وقد تَظَاهَرَتْ الأحاديثُ الصحيحةُ فِي فَضَائل قُريشٍ وانعَقَدَ إجْمَاعُ الأُمة عَلَى تفضيلِهِمْ عَلَى جَميع قبائلِ العَرَبِ وغيرِهِمْ . ففى الصحيحينِ عن ابن عمر رضي الله عنه قال رسولُ الله ﷺ :" لاَ يَزَالُ هَذَا الأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ مَا بَقِيَ اثْنَانِ ". وفي رواية أبي داود والطَّبَرَاني عن أنسٍ رضي الله عنه قال النبيُّ ﷺ :" الأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ ". قال الحافظُ ابنُ حجر : وإسنَادُهُ حسَنٌ . وفِي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ :" النَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ فِي الْخَيْرِ وَالشَرِّ " . وفي كتاب الترمذي أحاديثُ فِي فَضَائِلِ الأَزْدِ .

✓ مولدُهُ ونشأتُهُ :

وُلِدَ إمامُنا بغَزَةَ سَنَةَ خَمْسيْنَ ومائةٍ للهجرة (١٥٠) , وهيَ سنةُ وَفَاةِ الإمام الأَعْظَمِ أبي حَنِيْفَةَ رضي الله عنه . وغَزَةُ بَلْدَةٌ منَ الأَرَاضِي الْمُقَدَّسَةِ التِي بَارَكَ اللهُ فيها , لأَنَّهَا عَلَى نَحْوِ مَرْحلتَيْنِ مِنْ بيتِ الْمقدس . وليستْ مَوْطِنَ آبَائِهِ , وإنَّمَا خَرَجَ أَبُوهُ إدريسُ إليهَا فِي حاجَةٍ فوُلِدَ لَهُ بِهَا مُحَمَّدٌ ابنُهُ .

فَتُوُفِّيَ وَالدُهُ هُنَاكَ وهو صغيرٌ لاَ يَتَجَاوَزُ العَامَيْنِ . فذهَبَتْ به أُمُّهُ إلَى مكةَ وَقَدْ آثَرَتْ أن تَهْجُرَ أهلَهَا الأَزْدَ فِي اليَمَنِ . وتَحمِلُ طِفْلَهَا إلَى مكَّةَ مَخَافَةَ أَنْ يَضِيعَ نَسَبُهُ وحَقُّهُ فِي بيتِ مَالِ الْمُسلِمِيْنَ مِنْ سهمِ ذَوِي القُرْبَى . وكانت هذه أوَّلَ رِحْلَةٍ في حَيَاةِ هذا الطفلِ الَّتِي كَانَتْ كُلُّهَا رِحَلاَتٍ .

فنَشَأَ هذا الإمامُ في مَكَّةَ وعَاشَ فيها مَعَ عُلُوٍّ وشَرَفِ نسبه عِيْشَةَ اليتامى والفُقَرَاء. والنَّشْأَةُ الفقيرةُ مع النسب الرفيعِ تَجْعَلُ الناشِئَ يَشِبُّ عَلَى خُلُقٍ قَوِيْمٍ ومَسْلَكٍ كريْمٍ .

فعُلُوُّ النَّسَب يَجعَلُهُ يَتَّجهُ إلَى مَعَالِي الأُمُورِ , والفَقْرُ يَجْعَلُهُ يُشْعِرُ بأحَاسِيْسِ الناسِ ودَخَائِلِ مُجتَمَعِهِمْ , وهو أمرٌ ضَرُوْرِيٌّ لِكُلِّ مَنْ يَتَصدَّى لِعَمَلٍ يَتَعَلَّقُ بالْمُجتَمَعِ .

وقَدْ بَدَتْ عليه علائِمُ النُّبُوغِ والذكاء الشديدَيْنِ منذُ الصِّغَرِ حَتَّى إنَّ مُعَلِّمَ الكتاب قَبِلَ دُخُولَهُ فيه بدُوْنِ أَجْرٍ مُقَابلَ حُلُولِهِ مَحَلَّهُ فِي تعليمِ الصبيانِ أثناءَ غِيَابِهِ . وكانَ قَوِيَّ الذاكِرَة , فقَدْ قِيلَ : إنَّهُ مَا نَسِيَ شيئًا حَفِظَهُ أَبَدًا .

✓ طَلَبُهُ للعلم ومَنْزِلَتُهُ العلمية :

حَفِظَ إمَامُنَا القرآنَ وهو ابنُ سَبْعِ سِنِيْنَ , وَجَوَّدَهُ عَلَى مُقْرِئ مَكَّةَ الكَبِيْرِ إسماعيلَ بنُ قَسْطَنْطِيْنَ , وأخَذَ تَفْسيرَهُ مِنْ علماءِ مَكَّةَ الذين وَرَثُوهُ عَنْ تَرْجُمَانِ القُرْآنِ ومُفَسِّرِهِ سيدِنَا عبدِ الله بنِ عَبَّاس ﷺ . ثُمَّ اتَّجَهَ بعدَ حِفْظِه القرآنَ لاستِحْفَاظِ أحَادِيْثِ رَسُولِ الله ﷺ . وكان يَقُوْلُ : حَفِظْتُ القُرآنَ فَمَا عَلِمْتُ أَنَّهُ مَرَّ بِي حَرْفٌ إلاَّ وقَدْ عَلِمْتُ الْمعنَى فيه والْمُرادَ ... مَا خلا حَرْفَيْنِ : أحَدُهُمَا ﴿ دَسَّاهَا ﴾ والثاني ﴿ وأَبًّا ﴾ .

وقَدْ أَوْلَعَ منذُ حَدَاثَةِ سِنِّهِ بالعربيةِ فرَحَلَ إلَى الباديةِ يَطلُبُ النحوَ والأدَبَ والشعرَ واللُّغَةَ عشرينَ سنةً . ولازَمَ هُذَيْلاً عشرَ سَنَوَاتٍ يَتَعَلَّمُ كلامَهَا وفُنُونَ أدَبِهَا – وكانت أفصَحَ العَرَبِ – فبَرَزَ ونَبَغَ فِي اللغةِ العربيةِ وهو غُلاَمٌ . وحُبِّبَ إليه الرَّمْيُ حتَّى فَاقَ الأقرَانَ , وصَارَ يُصِيْبُ مِنَ العشرة تِسعَةً .

وفِي مكَّةَ كَانَ يَتَرَدَّدُ عَلَى الْمَسجدِ يَسْمَعُ من العلماء بشَغَفٍ شديدٍ . وكانَ في ضيقِ العَيْشِ بحَيْثُ لاَ يَجدُ ثَمَنَ الوَرَقِ الَّذي يُدَوِّنُ عليه , فكَانَ يَعمِدُ إلَى التِقَاطِ العِظَامِ والْخَزَفِ ونَحْوِهَا لِيَكتُبَ عليها . وكَانَ ﷺ يُقُولُ : " مَا أفلَحَ فِي العلمِ إلاَّ مَنْ طَلَبَهُ فِي القِلَّةِ , ولَقَدْ كُنْتُ أطلُبُ ثَمَنَ القَراطيسِ فتَعَسَّرَ عَلَيَّ ".

ولَمْ يَكُنْ قَدْ تَجَاوَزَ الخامِسَةَ عَشرَةَ مِنْ عُمْرِهِ حينَ صَارَ أستاذُهُ مُسْلِمٌ بنُ خالد الزَّنْجِي – إمَامُ أَهْـــلِ مكَّةَ ومُفْتِيْهَا – يَقُولُ لَهُ :" أَفْتِ يَا أبَا عَبْدِ الله فقَدْ والله آنَ لَكَ

أَنْ تُفْتِيَ ". وهكذا اجتَمَعَ له فِي مكةَ الْمُكَرَّمَةِ النُّبُوغُ فِي اللغةِ والفقهِ والتفسيرِ .

ولكنْ هِمَّتُهُ فِي طَلَبِ العلم لَمْ تَقِفْ به عندَ هذا الْحَدِّ . فقَدْ جَاهَدَ فِي سَبِيْلِهِ فكَانَ كثِيْرَ التِّرْحَالِ . وكانَ العُلَمَاءُ والفُقَهَاءُ فِي ذلك العصرِ يَشُدُّوْنَ الرِّحَالَ إِلَى الْمَدينةِ لِيَرَوْا عَالِمَهَا الْمَشْهُورَ الإمامَ مالكَ بنَ أنس ﷺ . وكانَ الإمامُ مالكٌ ﷺ صاحبَ مَجْلِسٍ فِي الْحَرَمِ النبَوِيِّ لَمْ يَطرُقْ الْخُلَفَاءُ بَابَهُ ويَحسَبُونَ حِسَابَهُ .

وطَرَقَتْ أخبَارُ الإمامِ مالك أسْمَاعَ عَالِمِنَا وإمامِنَا الشافعِيِّ ﷺ فاشتَاقَ لِرُؤيَتِهِ وتَلَهَّفَ لِسَمَاعِ علمِهِ فحَفِظَ كِتابَهُ الْمُوَطَّأَ ورَحَلَ إِلَى الْمدينةِ . وهُنَاك لَمْ يَستَطِعْ أَنْ يظْفَرَ بالوُصُولِ إِلَى بابِ الإمامِ مالكٍ ﷺ إلاَّ بعدَ لَأْيٍ وَجُهْدٍ . فنَظَرَ إليه الإمامُ مالكٌ وكانتْ له فِرَاسَةٌ فقَالَ له :" يَا مُحَمَّدُ اتَّقِ اللهَ وَاجتَنِبْ الْمَعَاصِيَ فسَيَكُونُ لَكَ شَأنٌ مِنَ الشَّأْنِ ". وفِي روايةٍ : " إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ ألقَى عَلَى قلبك نُورًا فلاَ تُطْفِئْهُ بالْمَعَاصِي ", ثُمَّ قَالَ له : " إذا مَا جَاءَ الغَدُ تَجِيءُ ويَجِيءُ مَنْ يَقْرَأُ لَكَ " فقالَ الإمامُ الشافعِيُّ ﷺ : " أنَا قَارِئٌ فَقَرَأْتُ عليه الْمُوَطَّأَ حِفْظًا – والكتابُ فِي يَدِيْ – فكُلَّمَا تَهَيَّبْتُ مَالِكًا وأرَدْتُ أن أقطَعَ أعْجَبَهُ حُسْنُ قراءَتِي وإعْرَابِي , فَيَقُولُ :" يَا فَتَى زِدْ ". حَتَّى قرأْتُهُ عليه فِي أيَّامٍ يَسِيْرَةٍ . وقَالَ : إنْ يَكُ أَحَدٌ يُفْلِحُ فهَذا الغُلاَمُ ".

وبَعْدَ أَنْ قَرَأَ عَلَى الإمامِ مالك مُوَطَّأَهُ لَزِمَهُ يَتَفَقَّهُ عليه ويُدَارِسُهُ الْمَسَائِلَ الَّتِي يُفْتِيْ بِهَا هذا الإمَامُ الجليلُ , وتوَطَّدَتْ الصِلَةُ بينَهُ وبينَ شَيْخِهِ فكانَ الإمامُ مالكٌ ﷺ يَقُولُ : " مَا أتَانِيْ قُرَشِيٌّ أفهَمُ مِنْ هَذَا الفَتَى ". وكانَ الإمامُ الشافعيُّ ﷺ يَقُولُ : " إذا ذُكِرَ العُلَمَاءُ فمَالِكٌ النَّجْمُ , وَمَا أحَدٌ أمَنُّ عَلَيَّ مِنْ مَالِكٍ " ... ولكِنْ يَبْدُو أنَّ مُلازَمَتَهُ لِلإمام مَالكٍ ﷺ لَمْ تكُنْ بِمَانِعَةٍ له مِنَ السفرِ والاختِبَارَتِ الشخصِيَّةِ , فكانَ يَقُومُ بينَ وقتٍ وآخَرَ برِحْلاَتٍ فِي البلاد الإسلاميةِ , كمَا كانَ يَذهَبُ إِلَى مكَّةَ يَزُوْرُ أُمَّهُ ويَستَنصِحُ بنَصَائِحِهَا .

وبعدَ مُضِيِّ عشرِ سَنَوَاتٍ عَلَى إقامته فِي الْمدينةِ الْمُنَوَّرَةِ تُوُفِّيَ الإمامُ مالكٌ رضي الله عنه . وأحَسَّ الإمامُ الشافعيُّ رضي الله عنه أَنَّهُ نالَ مِنَ العلم أشطُرًا فاتَّجَهَتْ نفسُهُ إِلَى عَمَلٍ مِنْ أعمَالِ الدَّوْلَةِ يَتَكَسَّبُ به بعدَ أنْ رهَنَ دارَهُ وعَجزَتْ أُمُّهُ عَنْ مَعُونَتِهِ , فتَوَلَّى عمَلاً بنَجْرَان مِنَ اليَمَنِ . وهناك طَفِقَ يَتَرَدَّدُ عَلَى حَلَقَاتِ العلمِ ويأخُذُ عَنْ كِبَار العلماء فيهَا إِلَى أَنْ وَقَعَ بينَهُ وبينَ وَالِي اليَمَنِ أثنَاءَ عَمَلِهِ شَيْءٌ (بسَبَبِ مَا أخَذَهُ عليه مِنَ الظُّلْمِ) فوَشَى به الوَالِي إِلَى الخليفة هَارُوْنَ الرشيد , فأمَرَ بإحضاره إِلَى بَغْدَاد . (وفِي مِحْنَتِهِ تَفصيلٌ سيأتِي ...) ولعَلَّ هذه الْمِحْنَةَ الَّتِي نزَلَتْ به قَدْ ساقَهَا اللهُ تعالَى إليه لِيَصْرِفَ اهتِمامَهُ عن الولاية ونَحْوِهَا ويَعُودَ للاتِّجَاهِ بكُلِّيَّتِهِ نحوَ العلمِ . وخرج هذا الإمامُ الجليلُ رضي الله عنه مِنَ التهمة الَّتِي نُسِبَتْ إليه لِيَطْبَقَ عِلمُهُ وشُهْرَتُهُ الآفَاقَ .

فقَدْ أصبَحَ مُحَمَّدُ بنُ الْحَسَن تِلْمِيذُ الإمامِ أبِي حنيفة رضي الله عنه الَّذِيْ آلَتْ إليه رياسَةُ الفِقْهِ فِي العِرَاقِ أستَاذًا للإمامِ الشافعِيِّ رضي الله عنه تَلَقَّى عنه فِقْهَ أهلِ الرأي . ولَمَّا كانَ قَدْ أخذ فقهَ أهل الحديثِ عَن الإمامِ مالك الذي آلَتْ إليه رياسةُ الفقهِ فِي الْمَدينةِ ... فقَدْ خَرَجَ مِنْ هذين الْمذهبين بمذهب يَجْمَعُ بينَهُمَا , وهو مَذْهَبُهُ القَدِيْمُ الْمُسَمَّى بكتاب الْحُجَّةِ . رواه عنه أربَعةٌ مِنْ أَجِلَّةِ أصحَابِهِ : الإمامُ أحْمَدُ بنُ حنبل وأَبُوْ ثور والزعفراني والكرَابِيْسِيُّ , وكان الزعفرانِيُّ أَتْقَنَهُمْ لَهُ روايةً وأحسَنَهُمْ لَهُ ضَبْطًا .

ثُمَّ قَفَلَ عَائِدًا إِلَى مَكَّةَ وَفِي جَعْبَتِهِ عُلُومُ أهلِ الأرضِ فِي ذلك العَصْرِ بعدَ أَنْ مَضَى عَامَانِ على إقامتِهِ فِي بغدَادَ . وأخَذَ يُلْقِيْ دُرُوسَهُ فِي الْحَرَمِ الْمَكِيِّ والتَقَى به أكبَرُ العلماء في موسِمِ الحجِّ , فكانوا يَرَوْنَ فيه عَالِمًا هو نَسِيْجٌ وَحْدَهُ .

وفي هذه الأثناء التَقَى به أَحْمَدُ بنُ حَنبَل . قال إسحقُ بنُ رَاهَوَيْه : " لَقِيَنِيْ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَل بِمَكَّةَ فقَالَ :" تَعَالَ أُرِيْكَ رَجُلاً لَمْ تَرَ عينَاكَ مِثْلَهُ " فأرَانِيْ الشَّافِعِيَّ ". قالَ : " فتَنَاظَرْنَا فِي الْحَدِيْثِ فَلَمْ أَرَ أفقَهَ منه , ثُمَّ تَنَاظَرْنَا فِي القرآنِ فلَمْ أَرَ أَقْــرَأَ منه , ثُمَّ

تَنَاظَرْنَا فِي اللغةِ وَمَا رَأَتْ عَيْنَايَ مثلَهُ قَطُّ ".

وَمَكَثَ في مكَّةَ تِسْعَ سَنَوَاتٍ كاملةً , لِيَصْفُوَ لَهُ الْجَوُّ لاستِخْرَاج قَوَاعِدِ الاستنباط بَعِيْدًا عن ضَوْضَاءِ العِرَاق وَتَنَاحُرِ الآراء فيهَا . وطَلَبَ منه عبدُ الرحْمنُ بنُ مَهْدِى إمامُ أهلِ الحديثِ فِي عَصْرِهِ أن يُصَنِّفَ لَهُ كتابًا فِي أُصُولِ الفقهِ , فصَنَّفَ كتابَ " الرِسَالَة " وهو أوَّلُ كتاب صُنِّفَ في أصول الفقه .

وأَجْمَعَ الناسُ عَلَى استِحْسَانِ كتابِهِ الرِسَالَة . وأقوالُهُمْ فِي ذلك مشهورةٌ . وقَالَ الْمُزَنِيُّ : " قرأتُ الرسالة خَمْسَ مِائَةِ مَرَّةٍ , مَا مِنْ مَرَّةٍ إلاَّ وَاستَفَدْتُ منهَا فائِدَةً جديدَةً ". وفي روايةٍ عنه قال :" أنَا أنظُرُ فِي الرسالةِ مِنْذُ خَمسِيْنَ سنَةً , مَا أعلَمُ أنِّى نَظَرْتُ فيها مَرَّةً إلاَّ وَاستَفَدْتُ شيئًا لَمْ أَكُنْ عَرَفْتُهُ .

ثُمَّ ارتَحَلَ ثانيةً إلَى بَغْدَاد وقَدْ سَبَقَتْهُ شُهْرَتُهُ إليها وتَحَدَّثَ بذكره الْمُحَدِّثُون والفُقَهَاء ولُقِّبَ فيها بنَاصِرِ الحديث . فأخَذَ يَنشُرُ آراءَهُ الفقهيةَ الأُصُولية ويُجَادِلُ عَلَى أسَاسِهَا . وعَقَدَ فِي الجامع الغَرْبِيِّ في بَغْدَاد حَلَقَاتِ العلم والفقهِ , وأَمَّهُ الْمُتَعَلِّمُون والعُلَمَاءُ : منهم الْمُمْتَحِنُ ومنهم الْمُستَمِعُ ومنهم الْمُتَّعِدُ بمذهبه السَّاخِرُ بهذا الْمُتَفَقِّه الجديدِ على زَعْمِهِ , فما يَكَادُوْنَ يَجْلِسُونَ إليه ويَستَمِعُونَ له حتى يَرْجِعُوْا عَنْ قولِهِمْ ويَتْرُكُوا مَا كَانُوْا فيه ويَتَّبِعُوْنَهُ .

ومَا زَالَ هذا الإمامُ يَصُولُ ويَجُولُ ويأتِي كُلَّ يومٍ بجديدٍ من فهم كلامِ الله وفِقْهِ حديثِ رَسُولِ الله ﷺ حتَّى حَمَلَ العلماءَ على الإقرار بعِلْمِهِ وظَهَرَ أمرُهُ بين الناس وانفَكَّتْ حَلَقَاتُ الْمُخَالِفِيْنَ حتى إنَّ أحَدَهُمْ قال : " قَدِمَ الشَّافِعِيُّ بَغْدَادَ وَفِي الجامع الغَرْبِيِّ عِشْرُون حَلْقَةً لِأَصْحَابِ الرأي , فَلَمَّا كَانَ يومُ الجمعة لَمْ يَثْبُتْ منها إلاَّ ثلاَثُ حِلَقٍ أو أربَعٌ " وفي هذه القَدْمَةِ التي دَامَتْ عَامَيْنِ أعلَنَ كُتُبَهُ – وقَدْ أنضَجَهَا الدراسةُ والْمُرَاجَعَةُ – ونَشَرَهَا بيَن صَحَابَتِهِ . وتكرَّرَتْ رِحلاَتُ هذا الإمامِ بينَ مكة وبغدادَ .

ثُمَّ خَرَجَ إِلَى مِصْرَ سنةَ تسعٍ وتسعينَ ومائةٍ ... كَمَا قالَهُ حَرْمَلَةُ , وقال الربيعُ الْمُرَادِي : سنةَ مائتَيْنِ . وكانَتْ هذه الرِحْلَةُ خَاتِمَةَ رِحَلاَتِهِ الَّتِي كان الدافعُ إليها مَيْلَهُ للابْتِعَادِ عَنْ مركز الْخِلاَفَةِ والسِيَاسَةِ . وذلك بناءً عَلَى دَعْوَةِ وَالِيِّ مِصْرَ لَهُ . وَانتَهَى به الْمَطَافُ هُنَاكَ , وأملَى مَذْهَبَهُ الْجَدِيْدَ فِي كتابِهِ " الْمَبسُوْطِ " الَّذِي اشتهَرَ فيمَا بعدُ باسمِ كتابِ الأُمِّ . وأعَادَ النظَرَ فِي آرائِهِ وكُتُبِهِ ومُؤَلَّفَاتِهِ , فجَدَّدَ بَعْضَهَا ونسَخَ بكتابه الْمِصْرِيِّ كِتَابَهُ البغدادِيَّ وقال ﷺ : " لاَ أَجْعَلُ فِي حِلٍّ مَنْ رَوَى عَنِّي كِتَابِيْ البغدَادِيَّ ".

وكان الناسُ فِي مِصْرَ عَلَى مَذْهَبِ الإمام مَالِكٍ . فقَدِمُوا الإمامَ الشافِعِيَّ واستَمَعُوا إليه وافتَتَنُوا به . وقَصَدَهُ كَثِيْرُوْنَ مِنَ الشام واليَمَنِ والعِرَاقِ وسائِرِ الأقطار لِلتَّفَقُّهِ عليه ...

وهكذا تَوَالَتْ الشهَادَاتُ بِمَكَانَةِ هذا الإمامِ مِنَ العلم فِي عَصْرِهِ وأَجْمَعَ شُيُوخُهُ وقُرَنَاؤُهُ وتَلاَمِيذُهُ عَلَى أنه كان عَلَمًا بينَ العلماءِ لاَ يُجَارَى . ولَئِنْ تَجَاوَزْنَا هذه الشهادات لَنَجِدَنَّ شهادةً أقوَمَ دليلاً , وَهِيَ مَا تَرَكَهُ مِنْ آثارٍ مِنْ أقوَالٍ مأثورةٍ أو فَتَاوى مَنثُورَةٍ أو رسائلَ كَتَبَهَا أو كُتُبٍ أملاها .

أمَّا مُصَنَّفَاتُ الإمامِ الشافعِيِّ فكثيرَةٌ مشهورةٌ . قالَ القَاضى الإمَامُ أَبُوْ مُحَمَّدٌ الْحُسَيْنُ بنُ مُحَمَّد الْمَرْوَزِى فِي خُطبَةِ تعليقه : قِيلَ : إنَّ الشَّافِعِيَّ ﷺ صَنَّفَ مائةً وثَلاَثَةَ عَشَرَ كتَابًا فِي التفسيرِ والفقهِ والأَدَبِ وغيرِ ذلك .

وهي على قِسْمَيْنِ :

١- قسمٌ يَذكُرُهُ الْمُؤَرِّخُونَ مَنسُوبًا لِهذا الإمامِ : مثلُ كتابِ الأُمِّ (والْمُرَجَّحُ أنه دَوَّنَهُ بنَفْسِهِ) وكتابُ الرسالةِ والأَمَالِي والإمْلاَءِ .

٢- قسمٌ يَذكُرُونَهُ مَنسُوبًا إلَى أصحَابِهِ عَلَى أنه تلخيصٌ لِكُتُبِهِ : مثلُ مُختَصَرِ الإمامِ

البُوَيْطِي وجَامِعِ الإمامِ الْمُزَنِي الكبِيْرِ والصغِيْرِ ومُختَصَرَيْهِ الكبِيْرِ والصغِيْرِ وحَرْمَلَةَ .

فلَهُ فِي القسمِ الأوَّلِ الْمَعْنَى والصياغةُ , ولَهُ في الثاني الْمَعْنَى فقَطْ . وقد ذَكَرَ الرُّوَاةُ طريقَةَ تأليفِهِ لِلْكتاب : فبَعْضَهُ يَكتُبُهُ بنفسِهِ , وبعضَهُ كانَ يُمْلِيهِ ويَنْسَخُ عنه تلاميذُهُ مَا يكتُبُ ويَقرَؤُونَهُ عليه . ففي كُلٍّ ذلك دليلٌ عَلَى مقدار علمِهِ ومَوَاهبه , فقد كانَ أكبَرَ مِنْ أديبٍ وأكثَرَ مِنْ فقيهٍ .

وكان مَجْلِسُهُ للعلم جَامِعًا للنظر فِي عَدَدٍ مِنَ العُلُوم . قال الربيعُ بنُ سليمان :" كَانَ الشافعِيُّ ﷺ يَجْلِسُ في حلقَتِهِ إذَا صَلَّى الصبحَ . فيَجيئُهُ أهلُ القرآنِ , فإذَا طَلَعَتْ الشمسُ قَامُوا , وجَاءَ أهلُ الحديث فيسألونه عَنْ تفسيرِهِ ومَعَانيه , فإذا ارتفعت الشمس قاموا . فاستَوَتْ الحلقة للمذاكرة والنظر فإذا ارتَفَعَ الضحى تَفَرَّقُوا , وجَاءَ أهلُ العربية والعُرُوضِ والنحو والشعرِ فلا يَزَالُونَ إلَى قُرْبِ انتِصَافِ النهار ".

لقد بُورِكَتْ نُبُوْءَتُهُ ﷺ في الإمام الشافعِيِّ حينَ قَالَ :" اللَّهُمَّ اهْدِ قُرَيْشًا فَإِنَّ عَالِمَهَا يَمْلَأُ طِبَاقَ الأَرْضِ عِلْمًا ". رواه الخطيبُ وابنُ عساكر فِي التاريخ عن أبِي هريرة ﷺ بإسنادٍ حَسَنٍ . قال النوويُّ : وحَمَلَهُ العُلَمَاءُ مِنَ الْمُتَقَدِّمِيْنَ وغيرِهِمْ مِنْ غَيْرِ أصحَابِنَا عَلَى الإمامِ الشافِعِيِّ ﷺ .

✓ العواملُ التي هيّئَتْهُ لِلنُّبُوغِ العلمي :

١- مواهبُهُ :

لقَدْ آتَى اللهُ تَعَالَى الإمَامَ الشَّافِعِيَّ حَظًّا مِنَ الْمَوَاهِبِ يَجْعَلُهُ فِي الذِّرْوَةِ الأُوْلَى مِنْ قَادَةِ الفِكْرِ وزُعَمَاءِ آرَاءٍ .

فقد كَانَ قَوِيًّا فِي كُلِّ قواه العَقْلِيَّة مِمَّا جَعَلَ تلميذَهُ بِشْرًا الْمُرَيْسِيَّ يَقُولُ :" مَعَ الشَّافِعِيِّ نصفُ عَقْلِ أهلِ الدنيا ". وكانَ حَاضِرَ البَدِيْهَةِ عميقَ الفكرة بعيدَ الْمَدَى فِي الفهمِ , فكانَتْ دراسَتُهُ طَلَبًا للكُلِّيَّاتِ والنظرياتِ العامةِ .

وكانَ قَوِيَّ البيانِ واضِحَ التعبيْرِ أُوْتِيَ مَعَ فَصَاحَةِ لسانه وبلاغةِ بَيَانه صَوْتًا عميقَ التأثير يُعَبِّرُ بنَبَرَاتِهِ وقَدْ سَمَّاهُ ابنُ راهويه :" خطيبَ العُلَمَاء ".

وكان نافذَ البصيرة فِي نُفُوسِ الناس قَوِيَّ الفراسة – كشيخِهِ الإمامِ مالكٍ – فِي معرفةِ أحوَالِ الرجالِ ومَا تُطِيقُهُ نُفُوسُهُمْ . وكانَ هذا سببًا فِي أنْ التَفَّ حولَهُ أكبَرُ عَدَدٍ مِنَ الصحاب والتلاميذِ .

وكانَ صَافِيَ النفسِ مِنْ أَدْرَانِ الدنيا وشَوَائبها . لذلك كان مُخْلِصًا في طَلَبِ الحق والْمعرفةِ , يَطلُبُ العلمَ لله ويَتَّجهُ في طَلَبِهِ إلى الطريقِ الْمُستقِيمِ . فإذا اصطَدَمَ إخلاصُهُ مَعَ مَا يَأْلَفُهُ الناسُ مِنْ آراءٍ أعلَنَ آراءَهُ فِي جرأةٍ وقُوَّةٍ . وقَدْ بَلَغَ من زُهْدِهِ في جَاهِ العلم وإخلاصِهِ لِطَلَبِ الحق أنه كانَ يَقُولُ :" وَدِدْتُ أَنَّ النَّاسَ تَعَلَّمُوْا هَذَا العِلْمَ عَلَى أنْ لاَ يُنْسَبَ إِلَيَّ مِنْهُ حَرْفٌ , فأُوْجرَ عَلَيْهِ ولاَ يَحْمَدُوْنَنِيْ ".

ومَا كانَ يَغضَبُ في جدالٍ ولا يَستَطِيْلُ بحِدَّةِ لِسانٍ في نِزَالٍ , لأَنَّهُ يَبْغِي الْحَقَّ في جُدُلِهِ , يَقُولُ ﷺ :" مَا نَاظَرْتُ أَحَدًا قَطُّ عَلَى الغَلَبَةِ , ووَدِدْتُ إذَا نَاظَرْتُ أَحَدًا أَنْ يُظْهِرَ اللهُ الْحَقَّ عَلَى يَدَيْهِ ". وقال أيضًا :" مَا كَلَّمْتُ أَحَدًا قَطُّ إلاَّ وَدِدْتُ أَنْ يُوَفَّقَ ويُسَدَّدَ ويُعَانَ ويَكونَ عليه رعايةٌ مِنَ الله وحفظٌ ".

وكان شديدَ التَّشَبُّثِ بحَديثِ رَسُولِ الله ﷺ . كَانَ الربيعُ يَقُولُ : سَمِعْتُ الشافِعِيَّ يَقُولُ :" مَا مِنْ أَحَدٍ إلاَّ وَتَغِيْبُ عنه سُـــنَّةٌ لِرَسُولِ الله ﷺ وتَغْرُبُ , فمَهْمَا قُلْتُ مِنْ قَوْلٍ أو أصَّلْتُ مِنْ أصلٍ – فيه عَنْ رَسُولِ الله ﷺ خلافُ مَا قُلْتُ – فالقَوْلُ مَا قَالَهُ رَسُولُ الله ﷺ , وَهُوَ قَوْلِي ". وجَعَلَ يُرَدِّدُ هذا الكلامَ .

٢- شُيُوخُهُ :

تلَقَّى هذا الإمامُ الفقهَ والحديثَ على شُيُوخٍ تباعَدَتْ أَماكِنُهُمْ وتَخَالَفَتْ مَنَاهِجُهُمْ فجَمَعَ فقهَ أكثَرِ الْمَذَاهِبِ الَّتِي كَانَتْ في عَصْرِهِ . وقد رَوَى عن كثيرٍ من

الْمَشَايِخِ أشهَرُهُم تسعَةَ عَشَرَ : خَمسَةٌ مَكِّيَّةٌ وسِتَّةٌ مدنِيَّةٌ وأربَعَةٌ يَمَانيةٌ وأربعَةٌ عراقيةٌ . وتلَقَّى فقهَ الإمامِ مالكٍ عليه , وتلَقَّى فقهَ الإمامِ الأوزاعي عَنْ صَاحِبِهِ عُمَرَ بنِ أبي سلمة من أهل اليَمَنِ , وتلقَّى فقهَ الإمام الليث بن سعد فقيهَ مِصْرَ عن صاحبه يَحْيَى بن حسان , ثم تَلَقَّى فقهَ الإمامِ أبي حنيفةَ عَنْ مُحَمَّدٍ بن الْحَسَنِ فقيهِ العراق .

وبذلك يكُونُ قَدَ بَرَعَ فِي مدرسةِ الْحَديثِ فِي الْمَدينةِ , ومَدْرَسَةِ الرأيِ فِي العِرَاقِ . وكَانَ ثَمَّةَ مَدْرَسَةٌ ثالثةٌ تُعْنَى بتفسيرِ القرآن , وهِيَ مَدْرَسَةُ مَكَّةَ الَّتِي اتَّخَذَهَا عبدُ اللهُ ابنُ عباس ﷺ مَقَامًا لَهُ , وقَدْ جَعَلَ الإمامُ الشافعيُّ سيدَنَا ابنَ عباس مَثَلَهُ الكَامِلَ وتَرَسَّمَ خُطَاهُ وسَارَ فِي مثلِ سبيلِهِ . وانسَاغَ كُلُّ ذلك العلمِ الكثيرِ في نفسِ الإمامِ الشافعِيِّ , فكانَ منه ذلك الْمَزِيْجُ الفِقْهِيُّ الْمُحْكَمُ الذي تلاَقَتْ فيه كُلُّ النَّزَعَاتِ مُنْسَجِمَةً مُتَعَادِلَةً مُتآلِفَةَ النَّغَمِ , وتولَّدَتْ منه تلكَ الْمَعَانِي الكُلِّية فقدَّمَهَا للناس فِي بَيَانٍ رائعٍ وقَوْلٍ مُحْكَمٍ .

٣- دراساتُهُ الخَاصّةُ وتَجَارِبُهُ :

كانَ ﷺ مع اتِّصَالِهِ بشُيُوخِهِ فِي مَكَّةَ والْمَدِيْنَةِ مُحِبًّا للرِّحْلَةِ . ولاَ شَكَّ أنَّ الأسفَارَ تَفتُقُ الذِّهْنَ وتَرهُفُ الْحِسَّ فوقَ مَا تُعْطِيهِ للفقيهِ مِنْ مادةٍ وخِبْرَةٍ . وكَانَ يَتَّصِلُ خِلالَ رِحلاَته بالشُّيُوخ ويُدَارِسُ العُلَمَاءَ ويَأخُذُ منهُمْ وَيُعطِيْهِمْ و لم يَقتَصِرْ على فُقَهَاءِ الجماعة الذين دَخَلُوا في طاعَةِ الْخُلَفَاءِ , بَلْ دَرَسَ آراءَ غَيْرِهِمْ . فكانَ يَطلُبُ العلمَ أَنَّى وَجَدَهُ لاَ يَهِمُّهُ الوِعَاءُ الَّذِي حَمَلَهُ إليه , بَلْ يَهِمَّهُ مَا في الوعاء .

٤- عَصْرُهُ :

وُلِدَ إمَامُنَا الشَّافعِيُّ ﷺ في العَصْرِ العَبَّاسِيِّ وعَاشَ فيه . وكانت الفَتْرَةُ التِي استَغْرَقَتْ حياةَ هذا الإمامِ مِنْ ذلك العصرِ هي فَتْرَةَ استِقْرَارِ الأمرِ لِهَذِهِ الدَّوْلَةِ وتَمْكِيْنِ سُلْطَانِهَا وازدهَارِ الحياةِ الإسلامية فيها .

وَقَدْ امتَازَ ذلك العَصْرُ بمِيْزَاتٍ كَانَ لَهَا الأَثَرُ الأكبَرُ في إحياء العُلُوْمِ ونَهْضَةِ الفكرِ الإسْلاميِّ حَتَّى أنه يُعْتَبَرُ مِنْ أَزْهَى العُصُورِ الإسلامية فكرًا وعِلْمًا .

فهؤلاء الْمُحَدِّثُون يُشَمِّرُونَ عَنْ سَاعِدِ الْجدِّ لِتمييزِ الصحيح فِي الْمَرْوِيِّ عَنْ رَسُول الله ﷺ . وهذه الفِرَقُ الْمُختلِفَةُ كُلُّ فرقةٍ تُجَرِّدُ سَيْفَ الْحُجَّةِ لِتَشُقَّ الطريقَ لآرائِهَا , والإمامُ الشافعيُّ يُخَالِطُهَا جَمِيْعًا ويُنَاقِشُ أَصْحَابَهَا ويَقبِسُ مِنْ عُلَمَائِهَا مَا يَرَاهُ صَالِحًا .

وهؤلاء العلماءُ مِنْ فُقَهَاء ومُحَدِّثِيْنَ يَنتَقِلُونَ في البلاد طَلَبًا للعَمَلِ , فيَلتَقِي بِهِمْ الإمَامُ الشافعيُّ خُصُوصًا فِي البيتِ الحرام كَانَ مُؤتَمَرًا عِلْمِيًّا . ثم هَا هُمْ أولاء فُقَهَاء الرأيِ وفُقَهَاءُ الحديثِ يَلتَقُونَ في مكانٍ واحِدٍ ويَتَنَاظَرُون طَلَبًا للحقيقة , فيأخُذُ كُلٌّ مِمَّا عندَ الآخَرِ . ثُمَّ هذا الفقهُ يُجْمَعُ في الكُتُبِ , فيَرَى هذا الفقيهُ آراءَ غَيْرِهِ مُدَوَّنَةً مَبسُوطَةً فيَقرَؤُهَا ويَدرُسُهَا ويَنقُدُهَا ويَقبَلُ مَا يَرَاهُ أقرَبَ للكتاب والسنة .

وهكذا جَاءَ الإمامُ الشافعِيُّ فِي وَسَطِ هذا اللَّجَبِ العِلْمِيِّ القَوِيِّ , وأخَذَ مِنْ تلك الثروة العلميةِ العظيمةِ وبِقُوَّةِ مَوَاهِبِهِ ودِرَاسَاته وحُسْنِ اتِّجَاهَاتِهِ خَرَجَ عَلَى الناس بآرائه ومَذْهَبِهِ .

✓ لَمْحَةٌ مِنْ صفاته وعباداته وأخلاقه :

كانَ الإمامُ الشافعيُّ رضي الله عنه طويلاً نبيلاً جَسِيْمًا . وكانَ يَخضَبُ بالْحِنَّاءِ , خفيفَ العَارِضَيْنِ . وقال الْمُزَنِيُّ : مَا رأيتُ أحسَنَ وَجْهًا مِنَ الشَّافعيِّ رضي الله عنه . وكَانَ رُبَمَا قَبَضَ على لِحْيَتِهِ , فلا تَفْضُلُ عن قبضَتِهِ .

وكانَ رضي الله عنه كثِيْرَ العبادة , فكَانَ يَقسِمُ الليلَ إلَى ثلاثة أقسَامٍ : ثُلُثٌ للعلمِ وثُلُثٌ للنومِ وثُلُثٌ للعبادة . وكانَ يَقِفُ بين يدَيْ رَبِّهِ , فيُصَلِّي ويقرَأُ وعينَاهُ تُفِيضَانِ بدَمْعٍ غزيرٍ خشيةَ التقصيرِ . وقَدْ كَانَ يَرَى نفسَهُ (لِشِدَّةِ تَوَاضُعِهِ) مِنْ أهل الْمَعَاصِي .

وفِي ذلك يَقُولُ :

أُحِبُّ الصَّالِحِيْنَ ولَسْتُ مِنْهُمُ لَعَلِّيْ أَنْ أَنَالَ بِهِمْ شَفَاعَةً

وأكرَهُ مَنْ بَضَاعَتُهُ الْمَعَــاصِي وإنْ كُنَّا سَوَاءً فِي البَضَاعَة

وقد اختصَّ اللهُ تعالَى هذا الإمَامَ بالعنايةِ , فكانَ له صوتٌ عميقُ التأثيرِ يَخرُجُ من قلبٍ مُنِيْرٍ زادَتْهُ العبادةُ الْمُتَوَاصلةُ والْمَحَبَّةُ الشديدةُ نورًا وتأثيرًا وسحرًا . وكانَ ﷺ مُوْلَعًا بالقرآنِ وصَحَبَتِهِ , فكانَ يَخْتِمُ في كُلِّ نَهَارٍ وليلةٍ خَتْمَةً , وفِي رمضانَ كَانَ يَختِمُ كُلَّ نَهَارٍ ختمةً وكُلَّ ليلةٍ خَتْمَةً . وكانَ إذا قرأ القرآنَ بَكَى وأَبْكَى سَامِعِيْهِ . قَالَ بَحْرٌ بنُ نَصْرٍ أَحَدُ مُعَاصِرِيْهِ : كُنَّا إذَا أَرَدْنَا أَنْ نَبْكِيَ قَالَ بعضُنَا لبعضٍ : قُومُوا بنا إلَى هذا الفتَى الْمُطَّلِبِي نَقْرَأُ القرآنَ . فإذَا أتينَاهُ استفتَحَ القرآنَ حَتَّى تَتَسَاقَطَ الناسُ بين يديه ويَكثُرَ عجيجُهُمْ بالبكاء . فإذا رأى ذلك أَمْسَكَ عن القراءة .

وكانَ ﷺ مُستقِيْمًا على الشرع إلَى أقصَى الْحُدُودِ . وكانَ كريْمًا ذا مُرُوءةٍ وخُلُقٍ رفيعٍ , شأنُهُ شأنُ آلِ البيتِ , سَخِيًّا يُقبِلُ عَلَى الفقراء ويُعْطِي عطاءَ مَنْ لاَ يَخَافُ عَيْلَةً . وَفِي هذا تُرْوَى الأعَاجِيْبُ عنه . ومِنْ أقوَالِهِ :" لِلْمُرُوءةِ أربَعَةُ أركَانٍ : حُسْنُ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءُ والتَّوَاضُعُ والنُّسُكُ " . وَمِمَّا تَمَيَّزَ به شِدَّةُ حَيَائِهِ وَخَجْلِهِ حتَّى نُقِلَ عنه أنه كَانَ يَحْمَرُّ وَجْهُهُ حياءً إذا سُئِلَ مَا ليسَ عندَهُ .

وكانَ مُبَالِغًا فِي الشفقةِ عَلَى الْمُتَعَلِّمِيْنَ وغيرِهِمْ , وفِي نصيحتِهِ لله تعالَى ولكتابِهِ ولِرَسُولِهِ وللْمُسلِمِيْنَ . وذلك هو الدينُ كما صَحَّ في حديثِ سيدِ الْمرسلينَ ﷺ .

✓ محْنَتُهُ :

اتُّهِمَ الإمامُ الشافعيُّ ﷺ بالتشَيُّعِ وحِيْكَتْ لَهُ الْمُؤَامَرَاتُ في قَصْرِ الخليفةِ هارون الرشيد حَتَّى بَعَثَ في طلبه . وسِيْقَ – وهو فِي الرابعة والثلاثين مِنْ عُمْرِهِ – فِي أقيادِهِ مع تسعةٍ مِنَ العَلَوِيِّيْنَ إلَى الرشيد . وهُنَاكَ ضُرِبَتْ رِقَابُ العَلَوِيَّةِ التسعة أمامَ هذا

الإمامِ وَاحِدًا بعدَ آخَرَ حتى جَاءَ دَوْرُهُ . وكانَ مُحَمَّدُ بنُ الحسن القَاضِي عندَ هَارُونَ الرشيد حَاضِرًا واستَطَاعَ الإمامُ الشَّافِعِيُّ بذكائه وسُرْعَةِ خَاطِرِهِ أنْ يَستَمِيلَ إليه قَلْبَ الخليفة وعَقْلَهُ وأن يُقنِعَهُ ببَرَاءَتِهِ , وأسلَمَهُ الخليفةُ للقاضي مُحَمَّدٍ بنِ الحسن . وكان العلمُ رَحِمًا بينَ أهله ودَافَعَ عنه القَاضِي وسَاهَمَ في خَلاَصِهِ وقالَ فيه : ولَهُ مِن العلم مَحَلٌّ كَبِيْرٌ وليسَ الَّذي رُفِعَ عليه مِنْ شأنِهِ . وبَرِئَتْ سَاحَةُ الْمُتَّهَمِ وأمَرَ له الرشيدُ بعَطَاءٍ قَدْرُهُ خَمْسُونَ ألفًا أَخَذَهَا الإمامُ الشافعِيُّ رضي الله عنه .

✓ مرضُهُ ووَفَاتُهُ :

كان رضي الله عنه كثيرَ الأَوْجَاعِ والأسقَامِ , وكَانَ يَشكُوْ البَوَاسِيْرَ خَاصَّةً . ولقَدْ بلَغَتْ منه في أواخِرِ أيامِهِ مَبْلَغًا عَظيمًا . فكانَ رُبَمَا رَكِبَ فَسَالَ الدم مِنْ عَقِبَيْهِ . وكانَ لاَ يَبْرَحُ الطَّسْتَ تحتَهُ وفيهِ لِبْدَةٌ مَحشُوَّةٌ يَقطُرُ فيه دَمُهُ . ومَا لَقِيَ أحَدٌ مِنَ السَّقَمِ مثلَ مَا لَقِيَ , ولكِنْ هذا لَمْ يَكُنْ لِيَصْرِفَهُ عَنِ الدروس والأَبْحَاثِ والْمُطَالَعَاتِ .

وليسَ هذا غريبًا على مثله ... وقد سُئِلَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ أشَدُّ الناسِ بلاءً ؟ فقَالَ :" الأنبيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ ". رواه الترمذي . ولَمَّا كانَ في مَرَضِهِ الأخيرِ دَخَلَ عليه تلميذُهُ الإمامُ الْمُزَنِيُّ فقالَ له : كيفَ أَصْبَحْتَ ؟ قَالَ : أَصْبَحْتُ مِنَ الدنيا رَاحِلاً , وللإخوَانِ مُفَارِقًا , ولِكَأْسِ الْمَنِـــيَّةِ شَارِبًا , وعَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَارِدًا , ولاَ واللهِ مَا أَدْرِي رُوْحِيْ تَصِيْرُ إلى الجنةِ فأُهَنِّئُهَا ... أَمْ إلَى النار فأُعَزِّيْهَا , ثُمَّ بَكَى وأنشَأَ يَقُولُ :

ولَمَّا قَسَا قَلْبِيْ وضَاقَتْ مَذَاهِبِي جَعَلْتُ رَجَائِيْ نحوَ عَفْوِكَ سُلَّمَا
تَعَاظَمَـــنِي ذَنْبِي فَلَـــمَّا قَرَنْـــتُهُ بعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا
فَمَا زِلْتَ ذَا عَفْوٍ عن الذنبِ لَمْ تَزَلْ تَجُـــوْدُ وتَعْفُوْ مِنَّةً وَتَكَرُّمًا

وفِي ليلةِ الجمعةِ بعدَ الْمغربِ آخِرِ ليلةٍ مِنْ رَجَبَ سنةَ أربَعٍ ومائتَيْنِ لِلْهِجْرَةِ انتَقَلَتْ روحُهُ الطاهرةُ إلَى رَبِّهَا عَن أربَعٍ وخَمسِيْنَ سَنَةً . وبعدَ عَصْرِ اليومِ التالِي

خَرَجَتْ مِئَاتُ الأُلُوفِ تَنقُلُ هذا الإمامَ إلَى مثواه الأخيرَ في القرافة بمِصْرَ . وذَهَلَ النَّاسُ بوفاتِهِ , وَخَيَّمَتْ الكآبَةُ عَلَى وُجُوهِ العلماء , وهُيِّضَتْ أَجْنِحَةُ تَلاَميذه , وطُوِيَتْ صفحةٌ مُشْرِقَةٌ مِنْ صَفَحَاتِ تاريخنا الرائع , وغابَ نَجْمٌ مِنَ النُّجُومِ التي سَطَعَتْ فِي سَمَاءِ البشريةِ فأضَاءَتْ الْمَشرِقَ والْمَغرِبَ .

قالَ الربيعُ : رأيتُ في الْمَنَامِ أنَّ آدَمَ عليه السلام مَاتَ , فسَأَلْتُ عَنْ ذلك ؟ فقِيلَ لِي : هذا موتُ أَعْلَمِ أهلِ الأَرْضِ , لأَنَّ اللهَ تَعَالَى عَلَّمَ آدَمَ الأسماءَ كُلَّهَا . فمَا كَانَ إلاَّ يَسِيْرًا فمَاتَ الشافِعِيُّ ﷺ . ورأى غَيْرُهُ ليلةَ مَاتَ الإمامُ الشافعي قائلاً يَقُولُ :" الليلةَ مَاتَ النبِيُّ ﷺ .

رَحِمَ اللهُ تعالَى الإمامَ الشافعِيَّ ورَضِيَ عنه وأكرَمَ نُزُلَهُ ومَثْوَاهُ , ونَفَعَنا به وَبانتِسَابِنَا إليه , وجَمَعَ بيننا وبينَهُ مَعَ أحبَابِنَا فِي دَارِ كَرَامَتِهِ . فقد كانَ كَمَا قَالَ عنه الإمامَ أَحْمَدُ بنُ حنبل ﷺ (أيْ حينَ سأله ابنُهُ عبدُ الله عَنْ سَبَبِ كَثْرَةِ دُعَائِهِ لَهُ) فقَالَ :" يا بُنَيَّ كَانَ الشَّافِعِيُّ كالشَّمْسِ لِلدُّنْيَا وكَالعَافِيَةِ لِلبَدَنِ , فَانْظُرْ هَلْ لِهَذَيْنِ مِنْ خَلْفٍ أو عَنْهُمَا مِنْ عِوَضٍ ".

✓ أَشْهَرُ تلاميذه :

خلَّفَ الإمامُ الشَّافِعِيُّ مِنْ تلاميذه أركَانًا فِي العلمِ ... يَرْعَوْنَ عِلْمَهُ ويَنشُرُوْنَهُ ويُدَافِعُونَ عنه . مِنْ هؤلاء :

فِي مكة : أَبُو بَكَر الْحُمَيدِي وكَانَ فقيهًا مُحَدِّثًا ثقَةً حَافِظًا .

وفي العِرَاقِ : أَبُو عَلِي الْحَسَنُ الصبَّاحُ الزعفرَانِيُّ ولَمْ يَكُنْ بَيْنَ تلاميذِ الإمامِ الشافعِيِّ أفصَحُ منه لِسَانًا ولاَ أبصَرُ منه باللغةِ العربيةِ . وكان رَاوِيَ كُتُبِهِ في العراق .

وأبو علي الْحُسَيْنُ بنُ عَلِّيٍ الكَرَابِيْسِي , وكَانَ عَالِمًا مُصَنِّفًا مُتْقِنًا . وأَبُو ثور الكَلبِي , وأبو عبدِ الرَّحْمَن أحْـــمَدُ بنُ مُحَمَّدٍ بن يَحْيَى الأَشْـــعَرِي البَصَرِي , وكَانَ

يُوصَفُ بالشَّافِعِيِّ , وهو أوَّلُ مَنْ خَلَّفَهُ فِي العِرَاقِ .

ومِمَّنَ أخَذَ عَن الإمامِ الشافعِيِّ وإنْ لَمْ يُعرَفْ بالتبعية لَهُ فِي مَذْهَبِهِ : الإمامُ أحْمَدُ بنُ حنبل أَحَدُ الأئِمَّةِ الأربَعَةِ . وقد قَالَ فيه الإمامُ الشَّافِعِيُّ : " خَرَجْتُ مِنْ بَغدَادَ وَمَا خَلَّفْتُ فيهَا أفقَهَ ولاَ أورَعَ ولاَ أزهَدَ ولاَ أعلَمَ مِنْ أَحْمَدَ ". وقَالَ يَحيَى بنُ مَعِيْن لِصَالحِ بنِ أحْمَدَ بنِ حنبل :" أمَا يَستَحْيِ أَبُوكَ رأيتُهُ مَعَ الشَّافِعِي ... وَالشَّافِعِيُّ راكِبٌ وهو رَاجِلٌ , ورأيتُهُ وقَدْ أخَذَ برِكَابِهِ ". قَالَ صَالحٌ : فَنَقَلْتُ هَذَا لأَبِي فقَالَ لِي :" قُلْ لَهُ :" إنْ أَرَدْتَ أَنْ تَتَفَقَّهَ فخُذْ بِرِكَابِهِ الآخَرِ ". وقال : ستةٌ أدعُوْ لَهُمْ فِي السَّحَرِ أحدُهُمْ الشَّافعيُّ . وأيضًا إسحَاقُ بنُ رَاهويه .

وفِي مصرَ : حَرْمَلَةُ بنُ يَحْيَى , وكانَ جليلاً نبيلَ القَدْرِ . ورَوَى عن الإمامِ الشافعِيِّ مِنَ الكُتُبِ مَا لَمْ يَرْوِهِ الربيعُ بنُ سليمان .

وأبُو يَعقُوب يُوسفُ بنُ يَحْيَى البُوَيْطِي . وقَدْ استَخْلَفَهُ الإمامُ الشافِعِيُّ فِي حَلْقَتِهِ وآثَرَهُ عَلَى مُحمَّد ابن عبد الله بن الحكم مَعَ عظيمِ مَحَبَّتِهِ لابن الحكم , ولكِنَّهُ قَدَّمَ الْحَقَّ عَلَى الأُخُوَّةِ والْمَحَبَّةِ ... كشأنِهِ دائمًا . قَالَ :" لَيْسَ أَحَدٌ أَحَقُّ بمَجْلِسِيْ مِنْ يُوسُفُ بنِ يحيى وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أصحَابِيْ أَعْلَمُ منه". كانَ البُوَيْطِيُّ عَالِمًا فقيهًا زاهدًا . تُوُفِّيَ فِي سِجْنِهِ فِي مِحْنَةِ القولِ بخَلْقِ القرآنِ .

وأبو إبراهيم إسْمَاعيلُ بنُ يَحْيَى الْمُزَنِيُّ , كانَ فقيهًا عالِمًا عابدًا عارفًا بوُجُوْهِ الْجُدُلِ حَسَنَ البيانِ . قال عنه الإمامُ الشافعِيُّ وهو فِي سِنِّ الْحداثة :" لَوْ نَاظَرَ الْمُزَنِيُّ الشَّـــيْطَانَ لَقَطَعَهُ ", كمَا قَالَ فيه :" الْمُزَنِيُّ نَاصِرُ مَذْهَبِيْ ". ولهُ فِي مذهبِ الإمامِ الشَّافِعِي كُتُبٌ كثيرٌ منه : الْمُختَصَرُ الكبير والْمُختَصَرُ الصغيرُ .

والربيعُ بنُ سليمان الْمُرَادِي الْمُؤَذِّنُ رَاوِيَةُ كُتُبِ الإمامِ الشافعِيّ وخَادِمُهُ . صَحِبَهُ طَوِيلاً وأَخَذَ عنه كَثِيْرًا وخَدَمَهُ واشْـــتَهَرَ بصُحْبَتِهِ . وهو آخِـــرُ مَنْ رَوَى بمصرَ عنه .

وكانَ يَرْوِي بصدقٍ وإتقانٍ , فكانت الرحَالُ تُشَدُّ إليه لِطَلَبِ كُتُبِ الإمامِ الشافِعِيِّ .

قالَ الإمامُ أَبُو الْحَسَنِ مُحَمَّدٌ بنُ عبد الله بنِ جعفر الرازي فِي كتابه " مَنَاقِبِ الشافعي" سَمِعْتُ أَبَا عُمَرَ وأَحْمَدَ بنَ على بنِ الْحَسَنِ البَصْرِي قَالَ سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بنَ حَمْدَان بنَ سفيان الطرايفي البغدادي يقُولُ :" حَضَرْتُ الربيعَ بنَ سليمان يَوْمًا وقَدْ حُطَّ عَلَى بَابِ دَارِهِ سَبْعُمِائَةِ راحلةٍ فِي سَمَاعِ كُتُبِ الشافِعِيِّ رَحِمَهُ الله ورَضِيَ عنه .

✓ **بَعْضُ حكَمه :**

- طَلَبُ العلمِ أَفْضَلُ مِنْ صلاةِ النافلةِ .
- مَنْ أَرَادَ الدنيا فَعَلَيْهِ بالعلمِ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ فعليه بالعلمِ .
- مَا تقَرَّبَ إلى اللهِ تعالى بشيءٍ بعدَ الفَرَائِضِ أفضَلَ مِنْ طَلَبِ العلمِ .
- الناسُ فِي غَفْلَةٍ عَنْ هذه السورةِ : ﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِيْ خُسْرٍ ﴾ .
- وَدِدْتُ أَنَّ النَّاسَ تَعَلَّمُوْا هَذَا العِلْمَ (أى كُتُبَهُ) عَلَى أنْ لاَ يُنْسَبَ إِلَيَّ مِنْهُ حَرْفٌ , فأُوْجرَ عَلَيْهِ ولاَ يَحْمَدُوْنَنِيْ .
- مَا كَذَبْتُ قَطُّ وَلاَ حَلَفْتُ باللهِ تعالى صَادِقًا ولاَ كَاذِبًا .
- مَا شَبِعْتُ منذُ سِتَّ عَشَرَ سنةً إلاَّ شَبْعَةً طَرَحْتُهَا مِنْ سَاعَتِي .
- مَنْ لَمْ تُعِزَّهُ التقوَى فلاَ عِزَّ لَهُ .
- طَلَبُ فُضُولِ الدنيا عُقُوبَةٌ عَاقَبَ اللهُ بِهَا أهلَ التوحيدِ .
- قيلَ لَهُ : مَا لَكَ ... تُدمِنُ إمسَاكَ العَصَا ولَسْتَ بضعيفٍ ؟ فقالَ :" لِأَذْكُرَ أَنِّى مُسَافِرٌ ". يعنى فِي الدنيا .
- خَيْرُ الدنيا والآخرةِ فِي خَمْسِ خِصَالٍ : غِنَى النفسِ , وكَفِّ الأذَى , وكَسْبِ الحلالِ , ولباسِ التقوَى , والثقةِ باللهِ تعالى على كُلِّ حالٍ .
- أنفَعُ الذخائِزِ التقوَى وأضَرُّهَا العُدْوَانُ .